- ١٧ -

آخر غزوات الرسول

عاد النبى ﷺ إلى المدينة بعد أن فتح مكة، وحاصر الطائف . .ثم عدل عن الحصار بعد أن رأى صعوبة الاستمرار فى هذا الحصار وفى نفس الوقت أصبح واضحا أن أهل الطائف ليس أمامهم سوى الانضواء تحت راية الإسلام إن عاجلا أو آجلا . .

ولعل الرسول ﷺ قد تذكر ما حدث له قبيل الهجرة فى الطائف، عندما قابله سادة ثقيف مقابلة غير كريمة. . فسخروا منه، وسلطوا عليه السفهاء حتى اضطر إلى الاحتماء وراء حائط بستان . .ولابد أن هؤلاء السادة قد تذكروا هذا الموقف الشائن الذى وقفوه من صاحب الدعوة، وعاشوا حتى رأوا هذا النبى الكريم يحاصرهم فى ديارهم !

أين اليوم من الأمس القريب !

إن الصورة مختلفة، وسوف يضطرون بالفعل بعد أن سقطت مكة تحت أيدى المسلمين، وهى أقوى القوى التى كانت تحارب النبى بكل ما تملك من قوة ومكيدة، بعد أن أحكموا قبضتهم على الأمور، وأصبح من الضرورى على القبائل أن تنطوى تحت راية الإسلام، أو تتوارى بعيدا عن المواجهة، وفى كلتا الحالتين، لم يعد أمام القبائل فى شبه الجزيرة العربية كلها، سواء رضيت أم لم ترض إلا أن تخضع لهذه القوة الغالبة التى تسندها قوة السماء.

وفى المدينة كان النبى الكريم مشغولا بالعبادة، ومشغولا بتبصير الناس بأمور دينهم، وفى نفس الوقت لم تغفل عينه عما يحيطه من خارج الحدود من أخطار، فقد تنبه الروم إلى خطر هذه القوة الإسلامية الصاعدة. . وأخذوا يتحينون الفرص للقضاء عليها. .

وقد حدث فى هذه الفترة ما كان متوقعا.. فقد وفدت بعض الوفود إلى المدينة تعلن إسلامها، كثقيف، وفى نفس الوقت علم النبى ببعض التحركات الرومانية فى محاولة لتهديد الإسلام والمسلمين.. وكعادة النبى تأهب للأمر.. وأعد له عدته وقرر أن يجابه الروم ولا ينتظر حتى يداهموا المسلمين فى المدينة ..ولأول مرة يعلن الرسول لأصحابه أنه سوف يتحرك لمجابهة بنى الأصفر.. وعرب الشمال الخاضعين لسيطرة الروم.. فلم يكن النبى فى غزوة من غزواته السابقة يعلن الأمر، بل انه يتكتمه حتى يجابه العدو ويفاجئه، ولكنه هذه المرة لم يتكتم الأمر، وأعلن صراحة انه يستعد لمحاربة الروم..فالناس كانوا يخشون بأسهم.. وكانوا يسمعون كثيرا عن هذه الامبراطورية البالغة السطوة والقوة، والتى تملك من العتاد والسلاح والجنود ما يفوق الخيال.. ولعل الرسول بذلك أراد أن يجعل الناس أمام مسئولياتهم فيستعدون للشهادة، ويعدون للأمر عدته..

وكان يسود البلاد حرارة عالية.. والجهاد فى مثل هذا المناخ صعب وشاق، وليس سهلا ولا هينا.. وهنا اختيار حقيقى لمعادن الناس ..الذين يحاربون للشهادة، والذين يحاربون من أجل الغنائم، ويكتشف المتخاذلين من المنافقين..

فقد انضوى تحت راية الإسلام بعض الناس ولما يدخل الإيمان بعد فى قلوبهم.. والجيش الذى سيزحف نحو الشمال جيش ضخم لم تشاهده شبه الجزيرة من قبل.. إنه جيش يضم ثلاثين ألف مقاتل.. ومثل هذا الجيش الكبير يحتاج إلى أموال طائلة، وعتاد ضخم.. ومن هنا أيضا تظهر معادن الناس فى السخاء..

وأثناء الاستعداد للقتال، والزحف.. بدأت تظهر الصورة الحقيقية للناس كما قلنا، كما ظهر المنافقون على حقيقتهم، وحاولوا أن يبثوا فى نفوس الناس روح الهزيمة..

ووسط هذه الظروف الصعبة تظهر عظمة القيادة السياسية والعسكرية عند رسول الله.. فالأمر لا يحتمل هؤلاء المتآمرين.. فقد اجتمع بعض المنافقين فى بيت سويلم اليهودى وهدفهم تثبيط همم الناس، وتحريضهم على عدم الجهاد.. فأرسل إليهم النبى ﷺ طلحة بن عبد الله على رأس عدد من أصحابه، وأمره أن يحرق هذا البيت على من فيه، مما اضطرهم إلى الفرار، وكسرت رجل أحدهم وهو الضحاك بن خليفة.

وقال النبى للجد بن قيس، من بنى سلمة:

- هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر؟

- يا رسول الله، أوتأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى ما من رجل أشد عجبا بالنساء منى، وأنى أخشي إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر.

فأعرض عنه الرسول وقال: قد أذنت لك.

وقد تبرع المسلمون بالأموال لتجهيز الحملة، وتبرع عثمان بن عفان بمبلغ كبير من المال يكفى نفقات ثلث الجيش، حتى أن النبى دعا له قائلا:

- اللهم أرض عن عثمان فإنى راضٍ عنه..

وتخلف فى هذه الحملة المعذرون من الأعراب، فاعتذروا للنبى ولكن الله لم يعذرهم..

واستعمل النبى على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى، وخلف النبى علياً بن أبى طالب فى أهله.. غير أن عليا غضب عندما تناهى إلى سمعه ما يقوله المنافقون عنه، من أن النبى رفض صحبته تخففا منه، مما حدا بعلى أن يأخذ سلاحه، ويحث الخطى ليدرك الجيش الذى كان مازال فى (الجرف).

وقال للنبى: يا نبى الله زعم المنافقون إنك إنما خلفتنى إنك استثقلتنى وتخففت منى ؟

قال له النبى: كذبوا لكننى خلفتك لما تركت ورائى فارجع فاخلفنى فى أهلى وأهلك، أفلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ألا أنه لا نبى بعدى..

فرجع على إلى المدينة..

وبدأ الجيش زحفه بقيادة الرسول الكريم فى التاسع من رجب فى السنة التاسعة الهجرية.. وكان المناخ بالغ القسوة.. والصحراء يشوى حرها الجلود. وشعر الناس بقسوة المسيرة، وخاصة عندما نفد الماء، حتى أن الصديق طلب من النبى أن يدعو الله حتى تتساقط الأمطار، ورفع النبى الكريم يده بالدعاء إلى الله، فإذا بالسماء تمتلئ بالسحب، وتهطل الأمطار.. واستبشر المؤمنون خيرا بهذه المعجزة.. بينما رأى بعض المنافقين أن هذه السحب التى هطلت بالأمطار كانت محض مصادفة !

وإذا كان من بين صفوف جيش المسلمين من أسلم بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه بعد..أو على حد تعبير القرآن الكريم:

﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

نقول إذا كان من بين صفوف المسلمين بعض ضعاف الإيمان، فقد كان من بينهم شديدو الإيمان بالله ورسوله..

فها هو مثلا أبو خيثمة يحكى لنا الرواة قصته.. عندما أخذ يفكر فى موقفه من الجيش الإسلامى الذى تحرك بقيادة إمام المرسلين صوب الشام.. ووجد نفسه ينعم فى ظل حياة هادئة ناعمة.. وزوجتيه يعدان له أطايب الطعام.. تذكر فى موقفه هذا نبيه الكريم، وهو يترك كل ذلك متجشما عناء السفر وسط قيظ الصحراء، ابتغاة مرضاة الله.. واستسخف موقفه فإذا به يتهيأ للحاق بالنبى وقال لزوجتيه:

- رسول الله ﷺ فى الضح (الشمس) والريح والحر، وأبو حيثمة فى ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، فى ماله مقيم.. ما هذا بالنصف.. والله لا أدخل عريش واحدة منكما، حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لى زاداً..

وحمل سلاحه، وركب راحلته متجها نحو ركب الرسول ، وقد أدركه عمير بن وهب الجمحى، متجها هو الآخر إلى ساحة الجهاد..

وقد حدث أثناء مسيرة النبى بجيشه أن ضلت ناقة النبى، وخرج أصحابه يبحثون عنها.. فإذا بأحد المنافقين ويدعى زيد بن اللصيت يقول:

- أليس محمد يزعم أنه نبى، ويخبركم عن خبر السماء وهو لا يدرى أين ناقته !

فإذا بالرسول يقول لأصحابه:

- إن رجلاً منكم يقول: إن محمدا هذا يخبركم أنه نبى، وهو يزعم أنه يحدثكم بخبر السماء، ولا يدرى أين ناقته !

والله أنى ما أعلم إلا ما علمنى الله، وقد دلنى الله عليها، وهى فى الوادى من شعب كذا، وقد حبستها شجرة فانطلقوا حتى تأتوا بها .

وذهب بعضهم وأحضرها..

وكان هذا المنافق فى رحل عمارة بن حزم، فطرد، من رحله..

وفى الطريق كان الناس يتحدثون عن موقف الناس من هذه الغزوة، وعن الذين تخاذلوا وفضلوا ألا يخرجوا فى حر الصحراء اللافح.. وعن الذين دفعهم الإيمان إلى الخروج مع رسول الله.

وكانوا عندما يسألون الرسول عن فلان الذى تخلف يقول لهم:

- دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه.

وكان من الذين تلفت الناس حولهم فلم يجدوه، الصحابى الجليل أبو ذر الغفارى.. وأثناء السير كان يبدو على البعد شبح لإنسان يجد فى سيره ليلحق بالمسلمين ونظر الرسول نحوه وقال:

- كن أبا ذر .

ثم قال:

- يرحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده !

وسار ركب رسول الله، وأثناء سيرهم مروا بأطلال ثمود عند الحجر .. وكان بها بئر.. استسقى الناس منها، فقال لهم الرسول:

- لا تشربوا من مائها شيئا ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلقوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئا، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب له.

ولكن رجلين لم يستمعا إلى قول الرسول الكريم، فغمرت أحدهما الرياح، أما الآخر فقد دفعته الريح إلى مكان بعيد، وضل طريقه، حتى هدته طى إلى الطريق فعاد إلى المدينة..

وعند قرية (تبوك) عسكر جيش المسلمين.. وظل النبى هناك عشرين ليلة، لم يظهر جندى رومانى واحد، فقد آثر الرومان الانسحاب، وعدم مواجهة النبى ﷺ، فقد خشوا الهزيمة، وأيقنوا أن الهزيمة سوف يكون لها تأثير هائل على مستقبل الامبراطورية الرومانية كلها.!

أرسل النبى بعض السرايا لبعض عرب الشمال من النصارى التابعين للروم، يأمرهم إما بالدخول فى الإسلام أو دفع الجزية، وقد أذعن لذلك يوحنا (صاحب أيله) وقبل أن يدفع الجزية سنويا للمسلمين.. وكتب له النبى كتابا يؤمنه وقومه..

ومما جاء فى كتاب النبى إليه:

- بسم الله الرحمن الرحيم. هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤية وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر لهم فى ذمة الله ومحمد النبى ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وأنه طيب لمحمد أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر..

ودخلت فى هذا العهد بعض القرى القريبة من تبوك كجرباء وأذرح.

وكان (أكيدر بن عبد الملك) ملكا على دومة الجندل، وكان نصرانيا فأرسل إليه النبى جيشا من خمسمائة مقاتل بقيادة خالد بن الوليد، ثم قرر النبى ﷺ العودة إلى المدينة، وتقدم خالد بن الوليد نحو دومة الجندل، واستطاع هزيمة (أكيدر) وأخذه أسيرا، وقتل أخاه حسان لأنه قاوم المسلمين، وأخذ المسلمون منهم غنائم كثيرة (ألف بعير وثمانمائة شاه، وأربعمائة درع، وبعض الذهب).

وقدم خالد على النبى بكل هذا، وسر المسلمون لهذا الانتصار وتلك الغنائم، أما (أكيدر) فهناك رواية تقول أنه قرر دفع الجزية، وقبل النبى ذلك، وفى رواية أخرى أن النبى عرض عليه الإسلام فأسلم.

وعندما رأى المتخلفون غنائم خالد، حزنوا ولم يعد ينطلى على أحد ادعاءاتهم بأن هذه الغزوة وسط هجير الصحراء ليس لها ما يبررها.. فلا هناك فتح، ولا هناك معارك مع الروم.. ولا هناك بالتالى ما يستحق عناء هذه الرحلة القاسية التى استغرقت فى الذهاب والعودة، والتأهب للقتال قرابة شهرين.. ولكن ها هو خالد بن الوليد، وقد حقق هذا الانتصار دون أن تراق أى دماء من صفوف المسلمين.. كل هذا هز هؤلاء المتخلفين من الأعداء.. غير أن ثلاثة منهم قد اعترفوا فى قرارة نفوسهم بأنهم أخطأوا

عندما تخلفوا مع المتخلفين، واعتذروا للرسول وهم كعب بن مالك ومرارة ابن الربيع وهلاك بن أمية.. وهؤلاء الثلاثة قد أمر الرسول أصحابه ألا يكلموهم ولا يتاجروا معهم.. فإذا بهم يحسبون أن الارض ضاقت عليهم بما رحبت، وهزتهم الأحزان من الأعماق، فقد شعروا أنهم منبوذون من جماعة المسلمين، فعز عليهم ذلك وانتابتهم الأحزان، إلى أن شملتهم رحمة الله، فأنزل فيهم قرآنا بالعفو عنهم.. فإذا بهم تعاودهم الفرحة برضاء الله عليهم، وقبول توبتهم، وعودة جسور التواصل بينهم وبين النبى وإخوانهم فى الإسلام..

وكانت الآيات التى بشرتهم برحمة الله قوله تعالى:

﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٨].

وعندما اقترب النبى من المدينة، أمر النبى بعض أصحابه بهدم مسجد (الضرار) الذى بناه جماعة من المنافقين بقرب مسجد قباء أول مسجد بناه النبى ﷺ بعد هجرته من مكة إلى المدينة، وقد ادعى الجماعة التى بنيت مسجد (الضرار) أنهم بنوه لذى العلة والحاجة والليلة المطيرة، والليلة الشاتية.

وكانت هذه الجماعة التى بنت مسجد (الضرار) قد جاءوا إلى النبى قبل أن يتحرك نحو (تبوك) ليصلى معهم فى هذا المسجد ووعدهم أن يفعل ذلك عند العودة من (تبوك).. وقد أخبره الله أن هؤلاء الناس من المنافقين، وأنهم يجتمعون فى المسجد، وغرضهم تحريف كلام الله عن موضعه لفتنة المسلمين.. ونزل قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٧، ١٠٨].

وبهدم مسجد الضرار، انهارت قوى المنافقين، وخاصة بعد أن مات زعيمهم ابن أبى بعد غزوة تبوك بشهرين.

وإذا كانت غزوة تبوك هى آخر غزوات النبى ﷺ فقد كانت هذه الغزوة دليلا على أن الإسلام قد ثبت أركانه فى شبه الجزيرة العربية ولم تعد هناك قوة يمكن أن تقف فى سبيل انتشاره.. وأصبحت دولة الإسلام لها مهابة فى كل القلوب.. قوة هائلة أصبح يخشى بأسها أباطرة الفرس، وقياصرة الروم، وأما بقية القبائل العربية، فإنها سوف تدخل فيه بالقناعة والاقتناع، أو تنضوى تحت لوائه لأن مستقبلها وأمنها وأمانها فى ارتباطها بالدين الجديد الذى أخذ يغزو القلوب والعقول.. وهذا ما حدث بالفعل.. فقد بدأ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا..كان النبى يحارب مشركى مكة فى بدر، فى عدد من المسلمين لا يزيدون إلا قليلا عن الثلاثمائة من المسلمين، ودخل مكة فى عشرة آلاف مقاتل، وحارب فى حنين ومعه اثنا عشر ألف مقاتل.. وبدأت القبائل المختلفة تتوافد على مدينة الرسول وتعلن إسلامها وولاءها وإخلاصها للنبى الخاتم.

وها هو النبى الكريم بشفافية روحه العظيمة يعرف أن نور الإسلام ينتشر بسرعة انتشار النور فيحول قلوبا كانت أقسى من الحجارة أو أشد قسوة، إلى قلوب عامرة بالإسلام ونور الإسلام، وما فيه من مودة ورحمة.

كان النبى قرير العين بما أفاء الله عليه من تحمل عبء الرسالة، وانتشار الدين الخاتم، وكان يسعد قلبه رؤياه لابنه إبراهيم من مارية القبطية، وقد أصبح فى سن الثمانية عشر شهرا وهو يملأ حياة أبيه فى شيخوخته بهجة وهناء.. ولكن إبراهيم لم يلبث أن مرض، ويحمله الوالد العظيم على حجره وهو يجود بأنفاسه ويقول له :

-« إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا ».

وتنطفئ شعلة الحياة، وتنطلق روح إبراهيم إلى بارئها..

فإذا بالدموع تملأ عين الوالد الرحيم وهو يقول:

- يا إبراهيم لولا أنه أمر حق، ووعد صادق، وأن أخرنا سيلحق بأولنا، لحزنا عليك أشد من هذا !

يا لعظمة الأبوة مجسدة فى شخص محمد بن عبد الله..!

ولقد تعجب الناس من حب محمد العظيم إلى والده الذى سيغيبه التراب، وارتسمت علامات الدهشة على وجوههم، فإذا به فى غمرة أحزانه يشعر بما يعتمل فى نفوسهم فيقول:

- «ما عن الحزن نهيت وإنما نهيت عن رفع الصوت بالبكاء، وإن ما ترون بى أثر ما فى القلب من محبة ورحمة، ومن لم يبد الرحمة لم يبد غيره عليه الرحمة».

وشيعه النبى مع بعض أصحابه، وعمه العباس، ودفن فى البقيع، وقد وضع النبى علامة على قبره وقال:

-« إنها لا تضر ولا تنفع ولكنها تعز عن الحى، وأن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه ».

وقد حدث كسوف الشمس، عند موت إبراهيم، وظن البعض أن الشمس كسفت مشاركة للنبى فى أحزانه، ولكن النبى وهو فى قمة حزنه، ولأنه نبى مرسل لا ينطق عن الهوى، حاول أن يدفن هذه الشائعات فى مهدها، تلك الشائعات التى دارت بين الناس عن معجزة خسوف الشمس فإذا بالنبى الصادق يقول للناس:

- «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد أو لحياته. فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة».

* * *

obeikandl.com